فى سيكولوجية الرمزية

بقلم

. عدنان الذهبى

بليسانس الفلسفة بجامعة فؤاد.

٢

واليوم ، إذ أشرع فى تفصيل ذلك المخطط الذى رسمناه لسير هذه الدراسات السيكولوجية فى الرمزية الفنية ، وبخاصة الرمزية فى التعبير الأدبى[١] ، لنبدأ إذن ، بتذكرة القارىء بذلك التقسيم الأساسى الذى قسمنا الرمزية الفنية ، وبخاصة الأدبية منها إليه هناك ، حين قلنا فيها إنها على أنواع ثلاثة :

نوع منها — وهو النوع الأول — قلنا فيه إنه الرمزية القائمة على أساس هذا الشعور الفنى[٢] ، المسمى بـ (التعاطف الرمزى) الذى يحسه الشاعر أو المنشىء

---

(١) — مجلة علم النفس مجلد ٤ ، عدد ٣ ، فبراير ١٩٤٩

(٢) — التعاطف الرمزى (La sympathie symbolique) عاطفة ملازمة للشاعر أو المنشىء الرمزى ، تجعله يعيش فى مختلف أشكال العالم الخارجى ؛ وهى ، بانتمائها إلى النظام الانفعالى (l'ordre affectif) ليست تمثلا فكرياً كالذى كان يؤمن به (نوفالس — Novalis) (١٧٧٢ — ١٨٩١) الذى كان يقول بالمثالية السحرية (Idéalisme magique) .. والشاعر الفرنسى (بودلير Baudelaire) (١٨٢١ — ١٨٦٧) قد وعى هذه العاطفة فى نفسه ، وعبر عنها فى قصيدته (مراسلات Correspondances) إذ يقول ما ترجمته :

« الطبيعة هيكل حيث أعمدة حية ، »

« تنفوه ، فى بعض الأحايين ، بكلام غامض .. »

« الإنسان يمر فيها بين غابات من (الرموز) .. »

« تنظر إليه نظرة ألفة...» الخ... (من ديوان أزهار الشر)

ولقد عانيت هذه العاطفة ، وعبرت عنها ، ولكن فى سياق فلسفى ، فى قصيدتى: (من الأعماق) المنشورة فى مجلة المقتطف عدد يونيو ١٩٤٩ إذ أقول فى نهايتها :

« قف بنا الآن يا شراع إذن ، هذى مجاذبى أنهكتها الخطوب !! »

« لم يجب «— قف بنا..» ويهوى بحث السير : رق جنت عليه الغيوب.. »

« فوقفت وحدى أشيع هذا الموكب المر — آه — وهو يغيب .. »

« وحوالى الكائنات (رموز) : فى فؤادى مفتاحها محجوب !! »

الرمزى بين عالمه الداخلى وبين العالم الخارجى ، وهى الرمزية بالمعنى الصحيح ...

ونوع منها — وهو النوع الثانى — قلنا فيه إنه لا يقوم على هذا التعاطف الرمزى ، وإنما هو رمزية من أنه أسلوب فنى ، أدبى ، يحمل خصائص الرمزية ، وهو أقسام[1] ، أبرزها : الرمزية الصوفية .

ونوع منها — وهو النوع الثالث — قلنا فيه إنه يجب إضافته إلى هذين النوعين الأولين ، وهو : رمزية النعوت الحسية ، وهو نوع هام ، وبخاصة فى علم النفس ، لما يثيره من مشكلات سيكولوجية تتعلق بنوع انطباع الأحاسيس ، وبنوع التعبير عنها .

وسنبدأ ، فى هذه المقالة الثانية ، بمعالجة هذا النوع الثالث من الرمزية ، وسيكولوجيته ، مرجئين معالجة سيكولوجية ذينك الضربين الأولين والهامين من الرمزية الفنية إلى العدد المقبل إن شاء الله تعالى ...

ولكن لابد لنا ، قبل هذا ، من وقفة متأنية ، على الرمز بمدلوله الفنى الدقيق[2] نبرز فيها خصائصه المنطقية ، والبلاغية ، والسيكولوجية وهى الخصائص التى سنراها فى كل من هذه الأنواع الثلاثة من الرمزية .

١

الرمز

مفاهيمه القديمة والحديثة — خصائصه — مقارنته بغيره من صور التعبير الأدبى

وهنا ، لا شك فى أننا ، قبل كل شىء ، باستعمالنا كلمة (رمز) باللغة العربية — هذه اللغة التى لها تراثها الثقافى والفنى الخاص — لا شك إذن فى أننا نثير ،

---

(١) هذه الأقسام — ولكل منها خصائصه البلاغية — إذا نظرنا إلى مضمونها ، أى إلى نوع معانيها المرموزة هى : أولا : فى مجال التعبير عن المعانى أو التجريدات الفلسفية : (الرمزية الفلسفية) ؛ وثانياً : فى مجال التعبير عن المعانى أو الوجدانات الصوفية : (الرمزية الصوفية) ؛ وثالثاً : فى مجال التعبير عن المعانى أو العواطف الأدبية : (الرمزية الأدبية) ؛ وهى إما عادية ، وهى التشبيهات الرمزية الطارئة فى الأسلوب ؛ أو أليغورية ، حكمية وهى رمزية الأمثال التى يتخذ فيها الأديب الحيوانات أو بعض الأشخاص للتعبير عن أفكاره ... وهكذا ...

(٢) — انظر مجلة علم النفس مجلد ٤ ، عدد ٣ ، فبراير ١٩٤٩ ، ص ٣٥٧ — ٣٦٤

بهذا الاستعمال ، فى خلد الواقفين على أمور البلاغة العربية القديمة ذكرى (الرمز) الذى كان فى هذه البلاغة العربية القديمة نوعاً غامضاً من أنواع الكناية Métonymie ترجمته باللغة الفرنسية[1] (allusion)

ا — المفهوم العربى القديم للرمز ...

والحقيقة ، لست أريد هنا إثارة هذا المعنى القديم ، فى خلد القارئ العربى اليوم ، لأن هذا المعنى لم يعد قط ، ليخدم القضية الرمزية . ولذلك حرصت فى دراساتى البلاغية فى الرمزية على عزله عن مجال البحث الفنى ، من أجل إحلال المفهوم الجديد الذى لكلمة (رمز — Symbole) عند الغربيين الذين تتأثر اليوم بهم فى شتى نواحى نشاطنا العلمى والفنى والفلسفى ...

وقد كانت طريقتى فى عزله عن البحث إبراز ماهيته إلى جانب ماهية المفهوم الجديد للرمز ، ثم مقارنتهما ، لإظهار بعد الشقة بينهما ...

وهنا لست أريد أن أطيل الوقوف على المفهوم القديم للرمز ، إلا أننى أقول فيه إنه — مثل الكناية — لفظ ، أو عبارة ، كان يقصد منه ، فى آن واحد معنيان : معنى يسمونه المعنى اللازم ، وهو المعنى الذى يوحيه سياق الكلام ، أى المعنى المجازى المرموز ، ومعنى ثان ، يسمونه المعنى الملزوم ، وهو المعنى الذى وضعت له الألفاظ نفسها ... مثل ذلك قولهم فى (البليد) : (عريضُ الوسادة ، أوَ ، عريض القفا) ... لأن التجربة الاجتماعية هناك ، فى تلك البيئة الصحراوية ، حيثُ تتطلب الحياة أجساماً هيافاً ، صلبة ، هى مستعدة دائماً للطوارئ وحمى الذمار ، هذه التجربة الاجتماعية إذن علمتهم أن (البليد) وحده يكون عريض القفا — لقلة همته — أو عريض الوسادة — لطلبه الراحة — وهكذا ، حتى اقترن فى أذهانهم ، هذا المعنى اللازم ، معنى البلادة ، بهذه الألفاظ ، وصارت العبارة رمزاً لها[2] ...

ولذلك نعته — ما دام نوعاً من أنواع الكناية — بالرمز الكنائى ، طلباً للدقة ،

---

(١) — يحسن هنا الرجوع إلى كتاب العالم الهندى شمس الدين الفقير : (حدائق البلاغة) ، الذى ترجمه المستشرق الفرنسى (Garcin de Tassy) تحت عنوان (Rhétorique et Prosodie des langues de l'Orient musulman). الطبعة الثانية ، باريز ١٨٧٣ — ص ٧٤ — ٧٥.

(٢) — راجع بحث الكناية فى (مختصر سعد الدين التفتازانى ، على تلخيص المفتاح للقزوينى ، فى علم المعانى والبيان والبديع ؛ وعليه تجريد البنانى) الطبعة الأولى مصر ١٣٤٧هـ الجزء الثانى ص ١٢٩ — ١٣٩

ودره للبس ؛ تاركاً لفظ (الرمز) لوحده ، لترجمة الكلمة الفرنسية (Symbole)وهو الرمز الذى تعتنينا مفاهيمه الغربية الجديدة اليوم ، التى بدأنا نحس بكيانها الفنى فينا منذ جبران خليل جبران[1] (١٨٨٣ — ١٩٣١)

ب — المفاهيم الغربية الحديثة للرمز

ولقد رأينا فى العدد السابق من هذه المجلة ، أن هذه المفاهيم الغربية تنضم تحت مدلولين للرمز :

أحدهما : مدلول للرمز شامل عام يكون الرمز (Le symbole) فيه إشارة (Signe)، كما سبق وضربنا على هذا كثيراً من الأمثلة العلمية والاجتماعية ...

والآخر : مدلول للرمز فنى دقيق ، هو ، كما يعرفه الأساتذة[2] : "Harztfied, Thomas, Darmesteter." : « الرمز شىء حسى ، معتبر كاشارة إلى شىء لا يقع تحت الحواس ، وهذا الاعتبار قائم على وجود مشابهة بين الشيئين أحست بها مخيلة الرامز » ؛ وهذا هو التعريف الذى يهمنا الوقوف عليه هنا ، منطقياً ، وبلاغياً ، وسيكولوجياً ، لأنه اللبنة الأساسية فى شتى الأساليب الرمزية المختلفة .

جـ — المدلول الدقيق للرمز الفنى .

نعم ، هذا التعريف ، هو أكثر تعاريف الرمز بساطة وتجريداً ، وهو أن الرمز « شىء محسوس يشير إلى شىء معنوى ، بين الشيئين مشابهة » .. وإذا جربنا هنا أن نضرب الأمثلة عليه — من أجل تقريبه من الأفهام — قلنا : بهذا المدلول الدقيق للرمز نقول مع الجاهليين إن (النسر) رمز الخلود ، ونقول مع غيرهم إنه رمز القوة أو رمز الطموح ، ونقول أيضاً مع المتصوفة العرب إن (الدير) رمز الحضرة الإلهية ، و (الخمر) رمز الوصال والتقرب ! ونقول مع الحكماء إن (الأفعى التى تلدغ من أكرم لها) رمز المعروف المصنوع مع غير أهله ؛ ونقول مع غير هؤلاء وأولئك إن (الأسد) رمز القوة ، و (الزنبقة) رمز الطهر وهكذا ... وهكذا ... من هذه الأمثلة المعروفة ، التى ترينا فى أساس تكوينها طرفين متغايرين : أحدهما حسى ، هو صورة النسر ، والدير ، والكأس ، والخمر ، والأفعى ، والأسد ، والزنبقة ،

(١) — راجع كتابنا « جبران خليل جبران ، المبشر بالرمزية العربية المعاصرة » نشر دار الفكر العربى ١٩٤٩.

(٢) Dictionnaire de la langue française. H.T.D. (Sym.) Paris — Delagrave — 1890.

التى نرمز بها المعانى الموحاة وراءها ، وهى الخلود ، والقوة ، والطموح ، والخضرة الإلهية ، والوصال ، والمعروف الضائع ، والطهر ، وهكذا ...

ولقد ناقشت (الجمعية الفلسفية الفرنسية) فى جلستها المنعقدة[١] فى (٧ مارس ١٩١٨) معنى كلمة (Le symbole) الذى هو هنا ترجمة لكلمة (رمز) ؛ وكان المشتركون فى النقاش متفقين على هذا التعريف السابق الذكر . لولا بعض التدقيقات لبعض العلماء المناقشين ، منها مثلا : « أن[٢] الأستاذ (هنرى ديلاكروا — Henri) (Delacroix قد لاحظ أن لفظة (رمز) تتضمن دائماً فكرة علاقة طبيعية لا اصطلاحية ، هى علاقة المشابهة ، بين الشكل المحسوس وبين الشىء المرموز به ؛ وأن الأستاذ (ليون برنشفيج — Léon Brunschwieg) قد عبر عن نفس هذه الفكرة ، قائلا إن الرمز (Le symbole) هو فى مقابل الإشارة الاصطلاحية الاصطناعية (Signe artificiel) من أنه له ، هو نفسه ، قوة للتمثيل باطنة فيه . »

د — الرمز فى المجالين البلاغى والجمالى

وهنا فى الحقيقة ، وبهذه القوة الإيحائية الكامنة فى الرمز ، يفترق هذا الرمز بمعناه الفنى الدقيق (Le symbole) عن الإشارة العادية (Signe) ، لندخل معه فى أجواء (التشبيهات) والاستعارات الرمزية ؛ ويصبح الرمز بهذا أداة ، من أكثر الأدوات الفنية إثارة للمخيلة ، أو تحريكاً للوجدان ...

ولقد عبر الفيلسوف الألمانى (هيجل — Hegel) أيضاً عن هذه الفكرة نفسها فى كتابه[٣] : « محاضرات فى علم الجمال » ، مؤكداً قيمة هذه القوة الإيحائية الكامنة فى الرمز ، والتى لا توجد لا فى (الصورة — Image) — من كونها صورة فقط — ولا فى (الاشارة — Signe) — من كونها مات إيحاؤها مع الاصطلاح كما رأينا فى هذه الأمثلة السابقة ...

---

(١) Bulletin de la Société francaise de Philosophie.—Xavier Léon; André Lalande. (Mars-Avril 1917, publiés en mai 1919) Pp. 131-134 (Symbole-Symbolisme) ...

(٢) — هذه الفقره من كلام الأستاذ (جورج دوما — G. Dumas) فى مقاله عن (ملكة الرمز) (La symbolisation) (ص ٢٦٥) المنشورة فى الجزء الرابع من كتابه الجديد فى علم النفس باريز — ألكان ١٩٣٤ — (ص ٢٦٤ — ٣٣٧).

(٣) — راجع فى ترجمتها الفرنسية (Esthétique) نشر (Aubier) باريز ١٩٤٤ ، الجزئين الثالث والرابع وبخاصة آراءه فى (Les arts romantiques) ...

ولقد درست فى إحدى مقالاتى المنشورة[١] ، هذه الناحية البلاغية ، وما ينشأ عن تشبيه المعقول بالمحسوس ، أو تشبيه المحسوس بالمعقول من تشبيهات أو استعارات رمزية أيضاً . ليس هذا المجال مجال الاسترسال فى تفصيلاتها ... إلا أننا هنا يكفينا أن نقول : إننا نصطلح : اليوم على أن نسمى التشبيه الذى يكون أحد طرفيه حسياً ، والآخر معنوياً : (تشبيهاً رمزياً) ، سواء ذكر هذان الطرفان أو لم يذكر منهما إلا طرف واحد كما فى الاستعارات الرمزية ...

هـ — خصائص الرمز بمدلوله الدقيق

وأظن أننا أمام تلك الأمثلة السابقة ، ومع هذه الملاحظات البلاغية والجمالية ، قد برزت أمامنا خصائص الرمز بمفهومه الفنى الدقيق هـــذا . وعلى كل حال ، لنذكر هنا أن للرمز خصيصتين أساسيتين :

إحداهما : أن الرمز — بتعريفه هذا التعريف الدقيق — يستلزم مستويين متغايرين[٢] : مستوى الأشياء ، أو الصور الحسية ، التى نأخذها قالباً للرمز من جهة ؛ ومستوى الحالات المعنوية التى نرمزها بهذه الصور الحسية من جهة ثانية ... حتى أننا عند ما ندمج الصورة الحسية الكامنة على المستوى الأول ، بالمعنى المرموز الذى نجده على المستوى الثانى أتينا بالرمز ، الذى هو ، كما رأينا فى تلك الأمثلة العديدة ، همزة وصل بين هذين المستويين المتغايرين ...

هذه هى (الخصيصة الأولى) ، وهى هامة جداً ، لا يقوم ، بدونها ، رمز ولا أسلوب رمزى ، أيا كان نوع هذا الأسلوب الرمزى ...

أما (الخصيصة الثانية) — وهى أقرب ما تكون خصيصة بلاغية ستنفعنا بصورة خاصة عند الكلام فى رمزية النعوت الحسية — فهى تتعلق بنوع العلاقة التى تربط بين هذه الصورة الحسية ، وبين معناها الرمزى . وهذه الخصيصة هى أن

---

(١) مجلة (الأديب) اللبنانية عدد ايلول ١٩٤٧ ص ٦ — ١٢ ؛ وعدد تشرين الأول ١٩٤٨ ص ٦٣ .

(٢) — من الخير أن نذكر هنا أيضاً ما قاله الأستاذ جورج ديما فى مقاله السابقة الذكر فى هذا ؛ قال « ومعرفاً هذا التعريف (يشير إلى تعريف الأساتذة هارتسفيلد ، توما ، ودار مستتر) الرمز يستلزم دائماً مستويين ، أحدهما مستوى الأشياء التى نرمزها ، والآخر مستوى الرمز نفسه (يقصد الصورة الحسية للرمز) ؛ توجد على المستوى الأول التجريدات والحقائق المعنوية التابعة للنظام الفكرى ، أو العاطفى ، أو الارادى ، والتى ، بطبيعتها ، لا تعرف معرفة حسية ، والتى بالرمز ، نسقط شيئاً من طبيعتها على مستوى التمثل الحسى . » (ص ٢٦٦) .

تكون العلاقة بين الصورة الحسية وبين معناها المرموز بها ، علاقة (المشابهة) . وذلك أنه من المعروف فى البلاغة أن العلاقة بين المشبه والمشبه به على أنواع[١] ، أهمها — والتى تعنينا هنا علاقة (المشابهة) هذه التى هى علاقة المجاز ، لأن الرمز مجاز[٢] .

٢

الرمزية — أنواعها — سيكولوجيتها

التعريف برمزية النعوت الحسية وتفسيراتها السيكولوجية ...

فهذا هو الرمز ، وهذه هى مفاده . وهذه هى خصائصه ؛ ولكن الرمز وحده لا يؤلف الأسلوب الرمزى ؛ أو لنقل الرمز وحده ليس كلاماً ، وإنما الرمز أبسط لبنة فنية فى الأسلوب الرمزى ، ولذلك لا بد لنا هنا إذن من اعتبار الرمزية فى الأسلوب كله .

١ — الرمزية ظاهرة تعبيرية

واعتبار الرمزية فى الأسلوب كله يضطرنا إلى تقسيم هذه الرمزية تلك الأقسام الثلاثة التى بدأنا بها هذا البحث ؛ والتى هى : حسب مجالات التعبير : أولا : رمزية تعاطفية ؛ وثانيا : رمزية الأسلوب الفلسفى ، أو الصوفى ، أو الحكمى ؛ وثالثاً : رمزية النعوت الحسية .

وهذه الأنواع كلها — رغم ما بينها من فروق جمالية وفنية — يمكننا أن نعرفها : بأنها أسلوب حسى ، ترمز صوره الحسية حالات معنوية لا تقع تحت الحواس . كما رأينا نفس هذا التعريف فى الرمز والتشبيهات الرمزية .

---

(١) — هناك أنواع أخرى من العلاقات بين المشبه والمشبه به ، مثل علاقة (الفاعلية) أو علاقة (الجزء بالكل) أو علاقة (السببية أو المسببية) أو علاقة (ما كان أو ما سيكون وهكذا) التى هى علاقات المجاز المرسل ... (راجع مختصر سعد الدين التفتازانى) السابق الذكر ، الجزء الثانى (ص ٢٠٨ — ٢١٤).

(٢) — يبقى مقارنة الرمز (Symbole) بالاليغوريا (Allégorie) أو التشبيه الرمزى المبسط ، إلا أنى أعرض هنا عن هذا ، مكتفياً بهذه الخصائص والملاحظات التى ركزنا فيها كل ما يتعلق بالرمز ؛ علاوة على أن بلاغتنا العربية القديمة لا تعرف شيئاً من هذا الرمز والاليغوريا التى نحاول اليوم إدخالها فيها ...

ب – رمزية النعوت الحسية – إمكانيتها

ولكن – هنا الآن إذ ندخل فى المجال الحسى – كيف تقوم الرمزية فى التعبير عن انطباع الأحاسيس فى النفس ، ونحن نقول إن الأسلوب الرمزى ، بل إن الرمز نفسه ، لا بد لقيامه من ذينك المستويين المتغايرين ، مستوى المعنويات ، ومستوى المحسوسات ، ونحن هنا على مستوى واحد هو مستوى المحسوسات .

الحقيقة ، لقد بدأ الأساتذة[1] (هارتسفيلد ، توما ، دارمستتر) يطرحون هذا السؤال على أنفسهم ، ويتساءلون فى إمكان اعتبار التعبير ، فى المجال الحسى ، من نعت إحساس بنعت إحساس آخر ، تعبيراً رمزياً ! ؟ . وما عتموا أن أجابوا على هذا بالنفى : أى قالوا : إن تعبيرنا عن انطباع الأحاسيس فى أنفسنا ، أيا كان نوعه ، وكيفما قرنا فيه إحساساً بإحساس آخر ، ليس رمزياً ، لأنه ما دام على مستوى المحسوسات ، ينقصه المستوى الثانى الضرورى لقيام الرمزية ألا وهو مستوى المعنويات ! !

وأما الأستاذ جورج ديما[2] ، الذى فصل القول فى هذا تفصيلا دقيقاً قيما ، فإنه يقول – وأنا أميل إلى الأخذ برأيه – أننا يمكننا أن نعتبر هذا النعت – أى نعت إحساس لحاسة ما بنعت إحساس لحاسة ثانية ، وهذا هو المقصود برمزية النعوت الحسية – يمكننا أن نعتبر هذا النعت إذن (نعتاً رمزياً) ، بشرط أن يكون قائماً على المشابهة ! ! .

وذلك أنه ، إن كان هذا التعبير هو ، فعلا ، تعبير فى المجال الحسى ، إلا أننا فى الحقيقة ، يجب أن لا يفوت عنا ، أن كل حاسة من حواسنا غرفة مستقلة بذاتها ، مغلقة على نفسها أو كما يقول الأستاذ جورج ديما ، هى عالم مغلق[3] (monde clos) وإن مثلها بالنسبة إلى أختها الحاسة الثانية مثل أحد ذينك المستويين اللذين كنا اشترطناهما لقيام الرمز والرمزية ، بالنسبة إلى المستوى الآخر الذى يرمزه .

بعبارة أخرى : أن نعت إحساس ما من أحاسيس حواسنا الخمس ، بنعت إحساس آخر لحاسة ثانية ، نستطيع أن نرى فيه (الخصيصة الأولى) للرمزية بمجرد اعتبار كل حاسة من هذه الحواس ، مستوى قائماً بذاته ، مثله بالنسبة إلى الحاسة

---

(١) — راجع إلى جانب قاموسهم ، مقالة الأستاذ جورج ديما السابقة الذكر (ص ٢٧٢).

(٢) Nouveau Traité de Psychologie—Paris — Alcan — 1943. Tome IV. Pp. 264-337.

(٣) — المصدر السابق الذكر : (ص ٢٧٢) .

الثانية ، مثل أحد ذينك المستويين بالنسبة إلى المستوى الآخر ، وهذا سهل تصوره .

« فمثلا — وهذه الفقرة من كلام الأستاذ جورج ديما[1] — نحن نقول فى « اللون ، أنه حار ، بارد ، براق ، صارخ ؛ ونتكلم عن رنة للألوان ، أو سلم « لها ؛ ونقول فى الصوت إنه ملون ، أبيض ، مظلم ، حاد ، ثقيل ، عميق ، « سكرى ، عاض ، واضح ، وننعت بعض الأحاسيس بأن نقول فيها إنها معجنة « باردة ، دبقة ، ناعمة ، حادة ، عميقة ، ذات حجم ، ضخمة ... وننعت بعض « الروائح بأن نعتبرها شائكة ، مدوخة ، ثقيلة ، خفيفة ، ملساء ، ... إلخ...إلخ « أفلا تستحق كل هذه النعوت القائمة بين حاسة وأخرى (هذه النقلات) إذا كانت « قائمة على أساس المشابهة ، أن توصف برمزية ؟؟ .. »

بلى !! . ولكن يبقى أمر الخصيصة الثانية ، أمر المشابهة ، والتى يشير إليها أيضاً الأستاذ جورج ديما فى نصه الأخير هذا !!

وهذه الخصيصة الثانية هامة جداً ، لا بد من توفرها للنعوت الحسية كى ننعتها برمزية : بل أنها أكثر أهمية من الخصيصة الأولى ، لما لها من صلة عميقة بسيكولوجية هذا التعبير الحسى الرمزى !! .

وذلك أننا ، عند ما نقول : إننا علينا أن لا نعتبر رمزياً إلا هذا النعت القائم على المشابهة بين الإحساسين ، علينا أن نبعد عن مجال البحث تلك النعوت القائمة على (اقتران — Association)[2] احساس بإحساس آخر ! .

وذلك أنه من المعروف فى تشريح الحواس ، أن الحاسة الواحدة ، فيها مراكز لحواس مختلفة : فمثلا أن حاسة اللمس فيها مراكز اللمس ، والحرارة ، والألم ؛ وقل مثل هذا فى حاسة السمع أو حاسة البصر ، علاوة على ما تضيفه الحساسية الباطنة ، من إحساسات عضلية وترية[3] !! . فهذه الإحساسات المقترن بعضها

---

(١) — المصدر السابق الذكر : (ص ٢٧٢ — ٢٧٣).

(٢) — كمثل على هذا الإقتران ، يقول الأستاذ جورج ديما (المصدر المذكور ص ٢٧٤) : « حينما نقول فى الصوت إنه عال أو واطىء ، فليس هذا من أننا ندرك هنا علاقة بين الصوت وبين مسافات الارتفاع أو الوطوء ، وإنما هذا من أن الحنجرة ترتفع عند إرسالها الأصوات الحادة وتنخفض عند إرسالها الأصوات الثقيلة ... » .

(٣) يقول الأستاذ جورج ديما (المصدر المذكور ص ٢٧٣) إننا علينا أن نبعد بصورة خاصة « نعوت الأحاسيس العائدة للأعضاء اللمسية ؛ والحرارية ، والعضلية ، والتى هى فى الواقع ممزوجة بحواس البصر ، والسمع ، والشم ، والذوق ».

ببعض يجب عزلها عن مجال البحث ، لاعتبار النعوت القائمة على (المشابهة analogie) فقط ، نعوتاً رمزية !! .

ج — علاقة المشابهة فى النعوت الحسية —

المشابهة بين النعوت الآلية والهندسية ...

وهنا إذن نقول : بعد أن أبعدنا هذه النعوت القائمة على أساس اقتران إحساس بإحساس آخر — نقول إن رمزية النعوت الحسية لا تقوم إلا عند ما ندرك ، بين أحاسيس حواسنا المختلفة ، (مشابهات) تبرر نقل نعت إحساس ما إلى إحساس آخر !! .

ومعنى هذا أننا فتحنا هنا المجال لمخيلة الفنان ، أوالمعبر — وسنرجع فى سيكولوجية هذه الرمزية الحسية ، لندقق فى مدى هذا الفتح — ترى فى النفس ، هذه المشابهات الناشئة من انطباع الأحاسيس ؛ فى حين أن تلك النعوت الأولى التى أبعدناها عن مجال البحث كانت نعوتاً يحس بها المعبر عنها إحساساً ثم يعبر عنها ... والأمثلة هنا كثيرة ، فمثلا — وليرجع إلى الفقرة السابقة الذكر — نحن نقول فى الصوت إنه صاف ، أو عكر ، أو حاد ، أو عميق ؛ ونقول فى اللون أنه رنان ، أو ملتهب ؛ وفى الطعم أنه ضخم ، أو عميق ؛ وفى الرائحة أنها خفيفة أو مبتلة ... وهكذا مما نشعر فيه بعلاقة (المشابهة) بين إحساسين مختلفى المنبع ، هذه العلاقة التى تجعل النعت رمزياً !!

وفى كل ما سبق كنا نتكلم عن العلاقات الحسية الصرفة بين أحاسيس مختلفة المنبع ، ونعوتها بعضها ببعض ؛ ولكن هنالك أيضاً علاقات حسية بين أحاسيس ونعوت آلية وهندسية كثيراً ما ننعت بها تعبيراتنا ...

« فالهندسة والميكانيكا — وهذا من كلام الأستاذ جورج ديما أيضاً[1] — »
« المدخلتان فى جميع المجالات الحسية المختلفة برمزية تلقائية ، توجدان بهذا نوعاً من »
« الرابطة ، واللغة المشتركة بين الأحاسيس المبعثرة ، كيفاً ، أيما بعثرة . »
« فالضخامة ، والحجم ، والثقل ، والخفة ، والعلو ، والقساوة ، واللين ، »
« والعمق ، تتدخل لتنعت نعتاً كمياً أحاسيس الذوق ، والبصر ، والسمع ؛ ولتعبر »
« عنهم تعبيراً رمزياً بلغة المساحة ، والخطوط ، والحجوم ، والقوى . »

(١) — المصدر المذكور (ص ٢٧٩).

كأن نقول مثلا فى الصوت أنه ثقيل ، أو ناعم ، أو خفيف ، أو حاد ؛ أو نقول فى الطعوم إنها ضخمة ، أو سطحية أو عميقة ؛ وفى الروائح أنها خفيفة أو ثقيلة ، أو مرتفعة وهكذا وهكذا من نعوت كمية !!!

نعم ، ولقد استشهد أيضاً الأستاذ جورج ديما على هذا كله[1] ، بقطعتين حسيتين رمزيتين جميلتين من الأدب الفرنسى ، نثبت هنا منهما للفائدة هذه القطعة العابثة ، وهى لـ (هيسمان — Huysmans) ، وهو يصف شعور أبطال روايته[2] (A Rebours) بالإحساسات السمعية المختلفة الصور التى خلقتها فى أنفسهم جرعاتهم لأنواع الخمور. قال : « فخمرة (الكيراكاو) مثلا تقابلها « الزمارة التى غناؤها حاد أملس ؛ وخمرة (الكمل) يقابلها الأرغل الذى رنته « خناء (والرجل الأخن هو الذى يتكلم من أقصى أنفه) ؛ وخمرتا (المانت « والأنيزيت) يقابلهما الناى ، الذى هو فى آن واحد سكرى ، معصفر ، « مصوت ، وعذب ؛ فى حين أن خمرة (الكيرش) كى تتم التخت ، تدق البوق « فى غضب ؛ وخمرتا (الجن والويسكى) يحملان القصر ببريق سطامه ا الحاد ... » إلخ ... إلخ ...

د — على عتبة الأسلوب الرمزى

فهذه هى إذن : النعوت الحسية الرمزية ، وهذه شروطها ومجالاتها ؛ ولا بد لنا قبل الدخول فى سيكولوجيتها ، من الكلام فى رمزية (النعت الحسى للحالات السيكولوجية ، عضوية كانت أو انفعالية ، أو فكرية) ، هذا الكلام الذى نحن معه على عتبة الرمزية فى الأسلوب .

والمقصود برمزية النعت الحسى للحالات السيكولوجية المختلفة ، هذه الرمزية الناشئة ، لا عن نعت إحساس بإحساس آخر بينهما مشابهة ، كما فى الأمثلة السابقة ، وإنما هى الرمزية الناشئة عن نعت الحاجات ، أو الغرائز ، أو الرغبات ، أو العواطف ، أو الانفعالات ، أو المعانى أو الأفكار ، بالنعوت الحسية ، هذا النعت الذى ، إن كان قائماً على (المشابهة) فهو رمزى .

نعم ونحن هنا أيضاً ، نشترط أن يقوم النعت على (المشابهة) ... وذلك أننا هنا أيضاً علينا أن نبعد عن مجال البحث النعت القائم على (اقتران) الحاجات ،

(١) — المصدر المذكور (ص ٢٨٠).

(٢) — A Rebours — Huysmans — Paris — Charpentier 1884.

أو الغرائز ، أو الرغبات ، أو العواطف ، أو الانفعالات ، أو المعانى ، أو الأفكار ، اقترانها إذن بالنعت الذى ينعتها !! .

بل فى الحقيقة ، هنا ، نرى أن « الحالات ، مثل الجوع ، والعطش ، أو الحاجة » « الجنسية ، وحاجات عضوية غيرها ، لا تستعمل الرمز قط ، لأن نصيب العناصر » « الصورية فيها ، التى يمكننا أن نعبر بها عنها ، ضئيل نسبياً ؛ بينما نصيب » « الإحساسات العضوية فيها ، كبير جداً[٢] . »

مثل ذلك هنا — وهذا ليس رمزياً — قولنا إن الإنسان ممتلىء ، أو محروق رغبة ! أو قولنا فى العطش إنه محرق ؛ وفى الحنجرة العطشى إنها مجففة من العطش ... فكل هذه النعوت الحسية ، مردها شعور حشوى بالحرارة أو الامتلاء أو الانهدام ، تسببها الإفرازات فى الجهاز الهضمى أو التناسلى !! .

بل أبرز مثل على ما يجب إبعاده[٢] عن مجال البحث الرمزى ، مع العواطف والانفعالات ، هو ما جربت (نظرية لانج وجيمس) (Théorie de Lange - James) أن تظهره ، من اقتران (إحساسات عضوية) ، بانفعالات ، هذه الاحساسات فى أساس تكوينها !! . مثل قولنا : مخنوق من الضيق ، أو متجمد من الرعب وهكذا ...

وعلى كل حال ، هنا نرجع فنقول إن هذه النعوت الحسية للحالات السيكولوجية لا بد لها ، كى نعتبرها رمزية من أن تكون قائمة على (المشابهة) ... والأمثلة على هذا كثيرة ، منها مثلا نعتنا ، الفرح ، أو الحزن بأنهما سطحيان ، أو أنهما عميقان أو أنهما محدودان ، أو أنهما ضيقان ، أو أنهما ضخمان وهكذا ...

٢

سيكولوجية الرمزية الحسية

فهذه إذن رمزية النعوت الحسية : وهى ظاهرة تعبيرية خاصة لها شروطها الدقيقة — التى أبرزها وجوب قيام النعت على المشابهة — وهذه أيضاً — بصرف النظر

---

(١) — المصدر السابق الذكر (ص ٢٨٤).

(٢) — راجع إلى جانب المصدر السابق الذكر (ص ٢٨٣) ، ما جاء فى (ص ١١٨ — ١٩١) من كتاب الدكتور يوسف مراد : (مبادئ علم النفس العام). الطبعة الأولى — ١٩٤٨

عن تلك النعوت المقترن إحساس المرء بطرفيها فيه — هذه إذن ، مجالاتها الواسعة ، المسموح فيها للمخيلة أو للفكر بإدراك المشابهة بين إحساسين ، أو بين حالة نفسية وإحساس ، ثم التعبير عنها !!. فماذا نقول فى سيكولوجيتها ؟؟

ا — تحديد دائرة البحث السيكولوجى

لا بد لنا قبل كل شىء من تحديد دائرة البحث السيكولوجى ، وهذا بإبراز خاصية هذه الظاهرة التعبيرية المتميزة ، التى هى رمزية النعوت الحسية .

فنحن هنا فى مجال من مجالات الرمزية : ومعنى هذا ، هو ، أننا علينا أن نحد بحثنا السيكولوجى فيها ، بكل ما يدور حول (ظاهرة الرمز والرمزية) ؛ لا أن نذهب لنفصل فى ما حول هذه الظاهرة ؛ ولا سيما ، ونحن نعلم — كما لا حظنا هذامراراً — أن هنالك نعوتاً حسية أخرى[1]، ليست رمزية ، قد جربنا أن نبعدها فى الفقرات (ب — جـ — د) السابقة ، هى لا تهمنا فى شىء ، فى هذا البحث الذى نحاول أن نتبين فيه سيكولوجية (الرمز) فى المجال الحسى ! .

نعم — لنؤكد هذا — : الذى يهمنا هنا ، إنما هو (ظاهرة الرمز) فى النعوت الحسية ، لا ظاهرة النعوت الحسية عامة !!

وإذن ، كتركيز للأفكار ، وزيادة فى الإيضاح ، لنعترف ، أولا ، بأننا فى المجال الحسى عندنا ظاهرتان تعبيريتان عن انطباع الأحاسيس فى النفس ، إحداهما رمزية ، هى التى تهمنا هنا ، والأخرى ، عادية ، عامة ، غير رمزية ، قد جربنا أن نبعدها عن مجال البحث !! ثم ، ثانياً ، كما أن لكلتا هاتين الظاهرتين الحسيتين الرمزية منهما وغير الرمزية ، سيكولوجيتها ، فنحن نحب هنا أن نبرزهما كلتيهما ، مع مختلف التفسيرات المذهبية التى تعرضت لها : فنكون بهذا كله قد عرضنا سيكولوجية المجالات الحسية من جميع وجوهها ...

ب — التفسيرات السيكولوجية لظاهرة النعوت الحسية عامة ...

وهنا نقول : إننا عندنا ، فى تفسير ظاهرة النعوت الحسية ، عامة ، أى من غير

(١) لقد حرصت هنا على عرض الأفكار التى هى فى أساس تكوين هذه الظاهرة التعبيرية، التى هى ظاهرة النعوت الحسية ، رمزية كانت أو غير رمزية ، مع التدليل الموجز المفيد عليها فى مجالها العادى والرمزى ، ولا بأس لمن أراد الاستزادة من هذه الأمثلة ، الرمزيه وغير الرمزية، أن يرجع إلى مقالة الأستاذ (جورج دوما) السابقة الذكر (ص ٢٧٢ — ٢٨٥) ففيها تحليل مستفيض لما هو رمزى ، وما هو عادى من هذه النعوت .

الالتفات إلى إبراز ما هو رمزى من بين هذه النعوت ، عندنا إذن ثلاثة أنواع من التفسيرات ، أحدها : (تفسير ارتباطى) (explication associative) والثانى : (تفسير عضوى) (explication organique) ؛ والثالث : (تفسير صيغى) (exp. gestaltique) ؛ وسنعرضها هنا بتركيز ، لنميل بعدها إلى تفسير سيكولوجية الظاهرة الرمزية نفسها .

أما (النظرة الارتباطية) ، فهى ترد[1] هذه الظاهرة التعبيرية الحسية ، من نعت إحساس باحساس آخر ، إلى اقتران اتفاقى بين الإحساسين ، يحمه المرء فى نفسه ، من تجاربه النفسية ، وبخاصة ما يرجع منها إلى طفولته الأولى ، ويلعبّر عنها تعبيراً مباشراً .

بعبارة أخرى ، هى لا تعترف لهذه الظاهرة التعبيرية الحسية بأساس عضوى أو سيكولوجى ، اللهم إلا هذا الاقتران ، التذكرى ، الذى يمكننا أن نفسره بما تفسر به الذاكرة وذكرياتها المقترنة على أساس المشابهة أو التضاد وهكذا ...

وهى نظرة سوف نقبلها نحن لتفسير (ظاهرة الرمز) ، بصورة خاصة ؛ إلا أنها لم ترض ، لا أصحاب النظرة العضوية ، ولا أصحاب النظرة الصيغية ... الذين ذهبوا يطلبون مثلا[2] أن تحدد هذه « التجارب التى ولدت هذا الاقتران » النفسى ؛ أو أنهم يقولون أن هذه الاقترانات فردية جزئية ! والظاهرة أكثر عمومية وأكثر اطراداً يمكن لكل إنسان ، كما يقول الأستاذ (فرنر Werner) ، أن يقف عليها فى الظروف الملائمة .

نعم ، لم ترض (النظرتان العضوية والصيغية) بتفسير هذه (النظرة الارتباطية) — وهى كما نرى نفسية صرفة — لأنهما كلتاهما جعلتا لهذه النعوت الحسية (أساساً) فى تركيب المرء العضوى والسيكولوجى ، ولم تفترقا فى أمر هذا الأساس ، إلا فروقاً طفيفة ، كما سنرى هذا الآن .

تقول (النظرة العضوية) : إن مرد هذه الظاهرة التعبيرية الخاصة ، التى هى

---

(١) — انظر فى هذا ما كتبه الأستاذ (بول غيوم P. Guillaume) فى كتابه (علم النفس الصيغى — La psychologie de la forme) طبعته باريز ١٩٣٧ (ص ١٩٢ — ١٧٣).

(٢) — راجع فى (مجلة علم النفس السوي والمرضي) الفرنسية (Journ. de Psych. norm. et path.) مجلد ٣١ سنة ١٩٣٤ — وهى موجودة فى مكتبة الجامعة المصريه تحت رقم (R-7) مقالة الأستاذ (فرنر Werner) : (وحدة الحواس — Unité des sens) : (ص١٩٠ — ٢٠٥) .

ظاهرةالنعوت الحسية ، إنما هو : وجود « وحدة عضوية للحواس (Unité organique des sens). بعبارة أخرى ، مردها وجود طبقة شعورية مشتركة بين الأحاسيس كلها ، يسميها الأستاذفرنر (Werner) : (الطبقة السينيستيزية(Couche synesthesique) هذه الطبقة التى هى فى أساس هذه التعبيرات الحسية ، إذ أنها كما يقول[١] هو فيها أيضاً : « الحساسية الواحدة المشتركة ، التى تختلف ، ابتداء منها ، الظاهرات الخاصة ، فى المجالات الحسية المختلفة .. » . نعم ، ولقد حاول السيكولوجيون والفسيولوجيون القائلون بهذه النظرة العضوية ، حصر هذه الإحساسات المشتركة بين جميع الحواس ، فذكروا لنا منها هذه الإحساسات الآتية ، أو لنقل معهم هذه (الصفات المشتركة)[٢](Qualités communes) وهى : الوضوح (la clarlé) والشدة (l'intensité) ، والخشونة (la rugosité) التى يقول[٣] فيها الأستاذ (فرنر Werner) : « أنها كلها قائمة على أن التركيب السيكوفيزيقى يعمل بمجموعه ، قبل أى انفصال تنفصله الدوائر المتميزة للحساسية ، وهذه المجموعية (Totalité) هى الأساس المشترك الذى تختلف ، عليه ، الظاهرات الحسية المختلفة . » إلخ ... إلخ ...

وهذه النصوص تقطع قطعاً تاماً — على ما فيها أيضاً من نزعة دينامية فى تفسير الظاهرات النفسية — تقطع بوجود هذه (الطبقة السينيستيزية) المشتركة بين الحواس كلها ... وعلى كل حال ، تكفينا نحن هنا ، هذه النتائج ، وهى نتائج وصل إليها هؤلاء العلماء السيكولوجين والفسيولوجيون بعد تجارب[٤] لهم عدة فى المجال الحسى ، ودقيقة ! نميل إلى الكلام فى (النظرة الصيغية) فى تفسير ظاهرة النعوت الحسية هذه وهى نظرة قريبة من هذه النظرة العضوية .

نعم (النظرة الصيغية) قريبة من النظرة العضوية فى تفسير ظاهرة النعوت الحسية بالأساس التركيبى ، ولا أقول العضوى ، المشترك بين الحواس ، أو بالأحرى بين

---

(١) — المصدر السابق الذكر (ص ٢٠٠).
(٢) — » » » (ص ١٩٣).
(٣) — » » » (ص ٢٠٢).
(٤) — لقد كانت تجاربهم ، كما يحدثنا (فرنر — Werner) فى مقاله السابقة الذكر (ص ١٩٥) على نوعين : نوع منها يتبين (تأثير — Influence) إحساس فى إحساس آخر ، من أجل إبراز صلتهما وبالتالى وجود طبقة سينيستيزية مشتركة بين الحواس . والنوع الثانى ، يحدد الدوائر السيكولوجية التى يحى فيها الشعور بانفصال المجالات الحسية المختلفة .

حاستين ! إلا أن هذه النظرة الجديدة ، تدخل ، هنا أيضاً ، فى المجال الحسى الداخلى ، فكرة (الصيغة) : الصيغة التى هى أشبه ما تكون بقالب سيكولوجى — هو تارة عضوى ونفسى ، وتارة نفسى واجتماعى ، وتارة داخلى فقط ، وتارة داخلى وخارجى — منصبة فيه ، وبصورة فطرية طبيعية أولية ، أحاسيسنا ، المحسوس بها فى كل لها ، وعواطفنا ، المشعور بها فى كل لها ، ومدركاتنا ، المدركة فى كل لها ، وجميع حالاتنا النفسية ، بل والعقلية أيضاً ، كما ذهبوا إلى هذا أيضاً .

وعلى كل حال ، لنقل هنا فى مجالنا الحسى الداخلى ، إن نعتنا الإحساس بإحساس آخر ، كأن نقول مثلا : لون صارخ ، أو صوت ثقيل ، أو رائحة حمراء ، وهكذا مما يوحى بأن هذه النعوت الحسية (كل Tout) موحد ، هذا النعت إذن راجع إلى تركيب حواسنا هذا التركيب الصيغى الخاص الذى يجعلنا نحس بهذا الكل الحسى ، إن صح التعبير ، هذا الإحساس الذى يقول[1] فيه الأستاذ (بول غيوم — P. Guillaume) أنه : « بدائى ، أولى ، » رغم تعقده ، لا يمكننا تحليله ، بل هو أبسط ما يمكن الرجوع إليه فى تحليل مضموننا النفسى ، فى حين أن النظرة الارتباطية كانت تقول إن هذه النعوت « مرتبط بعضها ببعض ، وثانوية » مردها ، لا الصيغة المنظمة ، ولكن مردها عند هؤلاء الارتباطيين[2] « الإدراك الموضوعى ، العملى ، العلمى . »

بعبارة أخرى ، إذا أردنا أن نجمع الآن هذه النظرات الثلاث ، ونقارنها بعضها ببعض ، بينما رأينا أن النظرة الارتباطية تجعل هذه النعوت الحسية من عمل الإدراك الباطنى ، الذى يفسر عندهم تفسيراً نفسياً صرفاً ، نرى أن النظرتين العضوية والصيغية تجعلان لهذه النعوت الحسية أساساً تركيبياً عضوياً !!. فماذا نقول فى (ظاهرة الرمز) فى النعوت الحسية ؛ أو بعبارة أخرى ، ماذا نقول فى سيكولوجية (النعوت الحسية الرمزية) الخاصة ؟؟ .

جـ — سيكولوجية النعوت الحسية الرمزية خاصة

فى إظهار سيكولوجية هذه النعوت الحسية الرمزية ، نقول ، إننا ، لا يخفى علينا ، منطقياً ، وقبل كل شىء ، أننا ما دمنا كنا اشترطنا لقيام الرمزية ، ذلك الشرط

---

(١) فى كتابه السابق الذكر (علم النفس الصيغى) (ص ١٠٥).
(٢) المصدر نفسه (ص ١٩٤).

الأساسى ، وهو وجوب قيام النعت بين الإحساسين على أساس (المشابهة) ، لا على أساس (الاقتران) ، لا يمكننا قبول (النظرة العضوية) التى تقول بوجود ذلك (الأساس العضوى) المشترك بين الحواس ، لأننا نحن نبعد عن مجال بحثنا الرمزى كل نعت قائم على اقتران إحساس المرء بطرفيه فى نفسه ، لنبقى على النعوت القائمة على أساس المشابهة الصورية الفارغة من المضمون الوجدانى أو الشعورى العضوى .

* * *

هذا فيما يتعلق بالنظرة العضوية ، أما فيما يتعلق (بالنظرة الصيغية) ، فإنها فى الحقيقة تقبل فى بعض المجالات الحسية ، بكونها ارتفعت بالتفسير من مجال عضوى محسوس به إلى مجال سيكولوجى تركيبى ، لولا أنها تظل تفسيراتها فى نطاق ضيق ، مطبقة على نعوت خاصة ؛ ولذلك لم يبق أمامنا إلا (النظرة الارتباطية) ، لا أقول لنقبلها بكليتها ، لتحل مشكلة هذه النعوت الرمزية ، ولكن لنستفيد منها فى التفسير الخاص لظاهره الرمز فى هذه المجالات الحسية أيضاً .

نعم ، إذا كانت تلكم ظاهرة النعوت الحسية الرمزية ، فما الذى فى نشاطنا النفسى ، أو لنقل فى عملياتنا النفسية تجعلها هكذا ؟ ! ؟ .

د — ملكة الرمز ووظيفتها فى المجال الحسى .

لعل الذى سيساعدنا على الإجابة هنا هو أن نلاحظ هذه الملاحظة ، وهى : أننا وإن كنا نحد هنا دائرة البحث بنطاق النعوت الحسية الرمزية ، إلا أن (ظاهرة الرمز) ليست مقتصرة على المجال الحسى ، بل إننا لنلمحها فى شتى المجالات الحسية والوجدانية ، والانفعالية ، والفكرية ، كما رأينا طرفاً من هذا أيضاً فى (الفقرة د) السابقة : الأمر ، الذى دعا الأستاذ (جورج ديما) إلى القول بوجود (ملكة للرمز) هى من الملكات العامة المنظمة للحياة النفسية ، لها مجالاتها ، كما أنها لها شروطها ووظائفها الخاصة .

ورغم أنى أحب هنا أن لا نبتعد عن المجال الحسى الذى ندرس ظاهرة الرمز فيه ، إلا أنه لا بأس من أن نذكر هنا ما وصل إليه الاستاذ جورج ديما ، فى استقرائه ظاهرة الرمز فى شتى المجالات الحسية ، والوجدانية ، والانفعالية ، والفكرية التى تعمل فيها ! ! . فقد وجد[1] الأستاذ (جورج ديما) : « أن الأسباب الداعية » « إلى الرمز هى دائماً واحدة ، وهى : صعوبات (المعرفة المباشرة) ، وصعوبات »

(١) — مقالة الأستاذ جورج ديما السابقة الذكر (ص ٣٣٥).

« (التعبير المباشر) ، السيكولوجية منها والأخلاقية ، نوعان من الصعوبات لا »
« يؤلفان إلا نوعاً واحداً . »

نعم ، ولقد فكرت طويلا فى أمر ظاهرة الرمز فى المجال الحسى وغير الحسى وقارنت بين مختلف النظرات المذهبية التى تعرضت لتفسيرها ، فوجدتنى فى النهاية أميل الى الأخذ بآراء الأستاذ جورج ديما هذه ، وأميل إلى القول معه بوجود هذه الملكة العامة المنظمة ، التى هى ملكة الرمز ، والتى تعمل فى شتى المجالات النفسية ، فى شروط معينة ، وحسب قوانين معينة ، والتى : « إذا قورنت بالحدس الحسى ، أو »
« الحدس العقلى ، أو حدس الحياة الداخلية ، أو الحدس الفنى ، ليست ، فى »
« مجالى (المعرفة) و (التعبير) ، إلا وسيلة غير مباشرة ...إلخ ... إلخ ...[1] »

وهذا معناه إذن ، أننا علينا ، أن نربط ظاهرة الرمز فى (المجال الحسى) — ونحن منذ الخطوة الأولى نحدد : أننا يهمنا من النعوت الحسية ، النعوت الرمزية فقط وسيكولوجيتها — نربطها إذن بشتى المجالات الثانية التى تعمل فيها هذه الظاهرة ؛ وأننا علينا بالتالى أن لا نضيق على أنفسنا مجالات البحث والتجربة . لندرس صلة إحساس بإحساس ، أو الكشف عن طبقة مشتركة للحواس وهكذا ... وإنما علينا أن نتناول المسألة تناولا أكثر شمولا : فنتأمل فيها الإنسان ، وهو يحاول المعرفة ، معرفة عالمه الداخلى ، أو معرفة العالم الخارجى ؛ ثم يحاول التعبير عن معارفه هذه ، فلا يجد أمامه إلا صعوبات ، فى المعرفة وفى التعبير ، صعوبات من أية ناحية سلكت إلى النفس وعوالمها ، من الناحية العضوية ، أو السيكولوجية أو الاجتماعية ..

ونحن إذا تذكرنا أن هذه النفس الإنسانية ، ليست — كما يظنها البعض — شيئاً من السهل معرفة مضمونه ، أو ضبط هذا المضمون ؛ وإنما هى فى الحقيقة ، دنياوات هاربة ، متموجة ، دقيقة ، دنياوات من الغرائز والوجدانات ، والانفعالات ، والأهواء ، والأحاسيس ، والأفكار تعيش كلها فى الظلام ، فى الجانب اللامرئى من الإنسان ، فى الجانب اللاشعورى الرحب الأفق ، البعيد الغور ، الغامض غموضاً مريعاً لعمرى ... أقول إذن ، إذا نحن تذكرنا هذا كله ، عرفنا القيمة الكبرى التى لوظيفة ملكة الرمز هذه ، وهى تحاول (معرفة) هذه الجوانب ، معرفة حدسية ، كما تحاول (التعبير) عنها تعبيراً حدسياً أيضاً ، تجسد المعنوى بالمحسوس ، وتومىء بالقريب إلى البعيد ، وتتغلب على صعوبات هذه المعرفة وذاك

(١) — المصدر نفسه (ص ٣٢٦).

التعبير بهذا الالتفاف الرمزى حول الحالة النفسية ، أيا كان نوعها ... وهكذا ... وهكذا ، مما هو واضح فى كلام المتصوفة ، والميتافيزيقيين ، والفنانين اللامسين هذه الجوانب الغامضة فى أنفسهم لمساً ...

و (المجال الحسى) نفسه — مثل غيره من مجالات هذه النفس الإنسانية — صعبة معرفته ، وصعب التعبير عنه ... ولاعجب إذن — فى المجال الرمزى منه : أى المجال الذى تكون النعوت الحسية فيه قائمة على (المشابهة) لا على (الاقتران) — لا عجب إذن أن نرى النفس هنا كى تعرف هذا الانطباع الذى تنطبعه الأحاسيس فيها ، أو كى تعبر عنه تعبيراً مباشراً شافياً ، تلجأ إلى الرمز ، فتقرن إحساساً بإحساس أو حالة نفسية بإحساس ، وهكذا ، مما نشعر معه بأن السبب فى الرمز (فى المجال الحسى) هنا ، ليس وجود تلك (الطبقة السينيستيزية) ، ولا وجود تلك (القوالب الصيغية) الجاهزة بين الحواس ، وإنما هو هذه (الصعوبات) المتحايل عليها تحايلا ...

— الخلاصة —

وإذا حاولنا أن نلملم الآن هنا ، ما قلناه فوق فى ظاهرة النعوت الحسية وسيكولوجيتها ، وجدنا أننا علينا ، أولا ، أن نميز بين نعوت حسية رمزية ، وبين نعوت حسية عادية . وأننا ، ثانياً ، إذا كانت لدينا ثلاث نظرات مذهبية ، ارتباطية ، وعضوية ، وصيغية ، لتفسير سيكولوجية هذه الظاهرة التعبيرية عامة ، فعلينا ، فى الحقيقة — إذا نحن اقتصرنا ، كما فعلنا هنا ، على ظاهرة النعوت الرمزية فقط — علينا أن لا نحد أنفسنا بمذهب دون غيره ، بل أن نلاحظ الظاهرة فى عموميتها ، ونستفيد من شتى النظرات ؛ وآنئذ ، نشعر ، بأن ظاهرة الرمز ليست مقتصرة على (المجال الحسى) ، بل أنها أكثر عمومية ، تشمل المجالات النفسية كلها من حسية ، ووجدانية ، وانفعالية ، وفكرية ، وهكذا مما يدعونا إلى القول — فى اطار علم النفس العام — بوجود ملكة عامة للرمز منظمة للحياة النفسية ، فى محاولاتها المعرفة ، أو التعبير ...

القاهرة عدنان الذهبى .

(١) — أقول هذا لأنى كنت عملت جهدى على أن أصطنع (النظرة الصيغية) فى تفسير ظاهرة النعوت الحسية ، الرمزية وغير الرمزية ؛ إلا أننى وجدت نفسى ، بعد كل شىء ، وكما قلت هذا فوق ، فى نطاق تجريبى ضيق ، فى الوقت الذى نرى فيه أن ظاهرة الرمز أكثر عمومية وأكثر إصالة فى النفس ، وهكذا مما حدا بى إلى الأخذ بالرأى القائل بوجود ملكة لها هى من الملكات العامة الكبرى المنظمة للحياة النفسية .

Adnan Al-Zahabi : PSYCHOLOGIE DU SYMBOLISME (2)

Dans ce second article sur la psychologie du symbolisme, l'auteur traite de deux choses: En premier lieu il cite les différentes conceptions qu'on a du mot (symbole), s'arrêtant sur la définition, que la "Société française, de Philosophie" a discuté, dans sa séance du 7 mai 1918, et accepté, et qui est celle de "Harztfield, Thomas, Darmesteter": "Le symbole est un objet sensible, considéré comme signe d'une chose qui ne tombe pas sous les sens, en vertu d'une analogie dont l'imagnation a été frappée.", et d'où il tire les propriétés rhétoriques et psychologiques du symbole, que l'on trouve dans les divers genres de style symbolique, et qui sont:

1) Que "le symbole suppose toujours deux plans: celui de la chose que nous symbolisons et celui du symbole lui-même. Sur le premier plan se trouvent les abstractions et les réalités mentales de l'ordre intellectuel, affectif ou volontaire qui sont soustraites, par leur nature, à la connaissance directe des sens; c'est par le symbole que nous projetons quelque chose de leur nature sur le plan de la représentation concrète."(G. Dumas).

2) Que la relation entre le symbole et la chose symbolisée est "l'Analogie"

Puis, en second lieu, l'auteur traite du probléme du (symbolisme sensoriel) et de sa psychologie,commençant par le définir, en indiquant ses conditions et ses domaines, qu'on peut résumer ici en disant, qu'il est ces transpositions qualificatives d'une sensation, comme la couleur, à une autre sensation, comme le son, comme quand nous disons: "couleur criarde".

Ici, l'auteur distingue deux sortes de qualificatif sensoriel, l'un symbolique, et qui est en vertu d'une (analogie) entre les deux qualificatifs sensoriels, et l'autre ordinaire, qu'on a essayé d'éliminer, et qui est en vertu d'une (association) anatomique des deux qualificatifs.

Cette distinction est capitale dans l'étude psychologique de ces qualificatifs sensoriels; car, presque tous les psychologues, et les physiologues, avant G. Dumas, ne distinguent pas entre ces deux sortes de qualificatifs sensoriels, et c'est pour cela qu'ils traitent ce problème d'une manière générale, sans faire ressertir le mécanisme de la symbolisation dans ce domaine sensible. Et selon ces psychologues et physiologues nous avons trois explications psychologiques de ces qualificatifs sensoriels: organique, gestaltique, et associationniste. Après avoir discuté ces différentes explication, l'anteur soutient l'existence d'une fonction générale d'organisation: la symbolisation, qui s'exerce dans les domaines sensoiel, affectif et intellectuel. Quant aux raisons qui nous portent à symboliser, elles se ramènent aux difficultés de la connaissance et de l'expression directes.